ثورة التصحيح.... هى ثورة الحرية

الأخبار:13-5-75

بقلم: إبراهيم المصرى

أن أنظمة الحكم لا تؤتى الثمار المرجوة منها ، إلا إذا كانت مستمدة من نفسية الشعوب ومن خصائص خلقها ومزاجها أو من شعور أفرادها بأنهم يرزحون تحت وطأة التخلف والاستبداد والظلم، وأنهم فى حاجة عميقة إلى نظام جديد، وينتشلهم من الوحدة التى يتردون فيها ، ويقر فى حياتهم ما يطمحون إليه من تطور وعدل، ويكون فى الوقت نفسه متفقاً مع طبيعتهم وخصائص خلفهم ومزاجهم، وإلا فهذا النظام الجديد لابد أن يضطرب ويتعثر ويشكو النقص والحاجة إلى ثورة تعديل وتصحيح.

فإذا كان الشعب مثلاُ قد تطلع فى ماضيه إلى النظم النيابية التى تشركه فى الحكم اشتراكاً فعالاً، وأحس أن تلك النظم هى التى تؤكد حريته وهى التى تتفق مع خصائص خلفه ومزاجه، وطالب بها ومارسها وأصبحت جزءاً أصيلاً من منزعه السياسى و الحضارى فهذا الشعب مهما تعذب بفقدان تلك النظم الحرة، ومهما رزح تحت وطأة التخلف والظلم، فهو لا يمكن أن يطمئن ويستريح فى ظل نظام ثورى جديد إذا فرض عليه هذا النظام تطوراً جبرياً، وعدلاً تعسفياً يناقض طبيعته، ويحد من استقلاله وحريته، ويباعد بين أفراده وبين المشاركة الفعالة فى شئون الحكم.

جهـــــاد الحريـــــــة

ونحن فى مصر قد جاهدنا جهاد المستميت فى سبيل الحرية، وظفرنا بها أعواماً ، وأقبلنا على النظم النيابية ومارسناها وكنا إذا حرمنا منها طالبنا بها فى حماسة وصدق وأيمان، لأنها لا تتبع فقط من خلقنا ومزاجنا بل أيضاً من ديننا الذى أساسه الشورى.

ولقد كنا قبيل ثورة يوليو الاشتراكية فى حالة محزنة من التخلف والتبلبل ومغالبة المستعمر، وعدم الاستقرار فى ممارسة النظام النيابى، تطمح إلى انقلاب شامل ينهض بنا وينقدنا . فلما فاجأتنا الثورة الاشتراكية وتخلصنا بوساطتها من نيران

الاستعمار ، هتفنا لها، ولذنا بها، وعقدنا عليها الآمال الكبيرة فى أن تقرن الاشـــتراكية بالحرية التى تتفق وطبيعتنا ومزاجنا، والعدل الاجتماعى بنظـــام نيـــابى ديمـــوقراطى صحيح يشرف على الحكومة ويحاسبها، ويشعر المواطن المصرى بقيمة فكره، وقيمـــة كرامته وإنسانيته . وبحثه على النشاط الفردى المبدع، ولا يكبله ويخنقه ، ولكـــن مـــا فرضته هذه الثورة من قيود على الحرية مستقرة و مثيرة، وما أخذت به مـــن حـــروب مرتجلة، وقوانين متعددة ومتقلبة،وأطماع أيديولوجية قيصرية ، ونزهات خياليـــة (دون كيشوتية) ، وتشتيت للجهود المصرية والعربية بدل جمعها، وانغلاق اقتصـــادى خـــانق أفقر وعذب البلاد التى لم تكن فيها صناعة عصرية متقدمة ولو قليلا يمكن أن تستغنى بها عن التبادل الحر مع العالم الخارجى، كل هذا الذى أخذت به الثورة انحراف بها عن طريقها.

ولما كان العنف رائدها ، فقد تحكمت فيها مراكز القوى، وبسطت على الشـــعب سلطانها. فانعدمت الحرية، وفشت المحسوبية، وتفاقم الحكم البوليسى ،وانتشر الأحقـــاد والضغائن والدسائس، وبات الناس يخافون من خيالهم، وينكمشون فى بيوتهم، ويحذرون من أقرب المقربين إليهم، فخلق منهم نوعين من العبيد: العبـــد الـــذى يرتضـــى القيـــد وبصمت حرصاً على سلامته ، والعبد الذى يمالئ المستبدين ويحمل القيد يطـــوق بـــه رقاب الأحرار.

أما المثقف المحروم من حرية فكره التى هى شرط ثقافته وحافز إنتاجه، فكـــان يحس أن لا قيمة لمواهبه، ولا جدوى من وجوده. فينسلخ شيئاً فشيئاً من ذاته ، ويعـــيش فى فراغ أسود حالك ، ولا يستطيع إلا أن يدمر نفسه ويحرقها حرقاً فى أتون من الأسى الممض المتواكل الخامد العقيم.

وهكذا كان الإرهاب مصلتا على الرؤوس، يفزع عن الحريات، وينحط بالناس ، ينحدر بهم إلى مستوى القطيع، ويمحو فى نظرهم لفرط ما هم عليه من مذله وهـــوان – كل عمل صالح وكل حسنة من حسنات النظام الثورى الجديد.

العنـــــف والإرهـــاب

فالعنف الجائز خنق العمل الصالح، والإرهاب الغاشم أحمد الحسنات، وانعدام الحرية أقصى الشعب جانباً وأفقده الشعور بالمسئولية، فانصمت الرابطة بين الشعب والحكومة ولم يعد هناك أى حسيب عليها من الأمة أو رقيب . فكان التشويش فى الإدارة، وكان التخبط فى القيادة وكانت الحرب التى انتهت بكارثة.

وظلت الأمور تتأرجح فترة بين صعود وهبوط ، بين مكائد ودسائس تدفع إليها شهوة الحكم ويلهيها الطمع فى السلطة ، حتى استضاء الجوى فجأة، وتبددت غيومه، و لمع فيه نور ساطع وهاج.

أنـــــور الســـــادات

ظهر الرجل العظيم . الرجل المنقذ ، أبن مصر البار ، محمد أنور السادات الرجل ذو الشخصية القوية الفذة ، الرجل الصبور الذى لا يتململ، الجريء الذى لا يتهور، الحازم الذى لا يتجبر ، المتأمل الصموت الذى ينعم النظر فى ما يدور حوله ولا يصمت إلا ليفكر ويتحفز ويثب ويعمل.

وهالة ما أبصر من تخيط ونصدع ووشك انهيار وضياع ، فأدرك بذهنه الثابت وبصيرته المشرقة ، إن الأرض لا يمكن أن تزرع سنوات طويلة بالبذرة نفسها وإلا استنزفت عصارتها وأصابها الجفاف . فلم يتردد وأقدم لا على استبعاد بذرة الثورة بل على تحسينها وتجديدها وتطعيمها.

فاستجمع قوى حبه لوطنه، وغيرته عليه، وإيمانه به، وأعلن فى الملأ ثورة التصحيح.

لم يفكر أبداً فى أن تكون ثورة التصحيح ثورة على الثورة، لم يتنكر ابداً لجوهر الاشتراكية، لم يمس القطاع العام. لم يغلب طبقة على طبقة.

أراد أن يصلح الفاسد، أن يستكمل النقص، أن يدعم دولة والظلم، أن يوائم بين المذهب الاشتراكى والواقع المصرى، بين العدالة الاجتماعية وبين ما هو متصل فى

ماضى شعب مصر وفى خلقه ومزاجه وطبيعته من ولع غريزى بالحرية ، وتشبث عنيف بالكرامة، وثقة عميقة فى النشاط الفردى، وفور شديد من فناء الفرد فى "الدولة".

هذا ما اعتمل فى فكر ونفس الرجل العظيم، فلم يتردد. نغث فى الشعب من إيمانه. رد الشعب إلى طبيعته وروحه . إجابة إلى النزهة الديمقراطية المتأصلة فيه. بشره بالحرية. أطلقه من عقاله . أنشأ له المجلس النيابى الشعبى يقف بالمرصاد لكل مسئول يهمل أو كبير ينحرف . أنقذ الصحافة من عهد الكمامات وأطلق لها الحرية هى أيضاً تعاون وتساند مجلس الشعب فى النقد والمحاسبة والتوجيه حرص على المكاسب التى أحرزتها الطبقة الكادحة وأغدق عليها أيضاً جهد المستطاع . فتح السجون وأطلق المعتقلين ، ولم يعد يخشى إنسان فى عهده أن يؤخذ غيلة ويساق فى صميم الليل من الدار إلى النار، إلى سجن يطرح فيه ظلما وتشفياً وانتقاماً، ويسأم فى وجوه المهلك شر ضروب الإذلال والتعذيب.

القانــون فــوق الجميـــع

ساوى بين الجميع ، وضع القانون فوق الجميع ، غرس فى النفوس أن على الفرد أن يحترم حق الغير، وأن على الدولة أن تحمى حق الجميع.

هذا وهو لا يغفل الجيش لحظة يسهر على عتاده، يحكم نظامه يرفع معنوياته. يذكى الجذوة الوطنية الكامنة فيه، تلك الجذوة التى اضطرمت فداء وتضحية فى حرب أكتوبر، وحققت لمصر نصراً لم تغز بمثله منذ سنين، نصراً محاً عنها عاد الهزيمة، وعزز إحساسها بالكرامة، واكسبها إعجاب وتقدير العالم.

وفى الوقت نفسه كانت الرجل العظيم يجمع شمل العرب، ويكسب صداقة الدول والشعوب، ويتجه صوب البناء والتعمير، ويشرع فى انفتاح اقتصادى يجلب للشعب الرخاء. ثم ينبه إلى خطر الصفقات التى يعقدها العملاء والسماسرة والتى تملأ جيوبهم على حساب المستهلك، بما يترتب عليها من زيادة فى أسعار السلع ويطالب وزير التجارة بإيجاد حل سريع لها . ثم يجيش قلبه الكبير بمشاعر البر، فيسعى لضمان معاش لكل أرملة وكل مطلقة وكل عاجز أو مسن أو محتاج ، ثم يتحول إلى العمل السياسى ، ويخطو الخطوة الرائعة، فيفتح القناة لخير بلده والعالم، وهو ينشد السلام القائم على

العدل دون أن يكف عن السهر على الجيش وتقويته وتدعيمه وتزويده بالسلاح من شتى المصادر.

هذا هو الرجل العبقرى الذى أرسلته العناية لخلاص أمته، وهذه بعض منجزاته فى ثورة التصحيح.

ثورة الحرية . فهو الزعيم المنقذ والقائد الهادى، وشعبنا بأسره يلتف حوله، وينضوى تحت لوائه، ويشد أزره ليحقق لمصر أمالها فى مستقبل عزيز وكريم، خليق بماضيها المجيد، وحضارتها العريقة الخالدة.

www.anwarsadat.org